

التطور الاجتماعي والاقتصادي في منطقة تيبازة أواخر القرن 19

فارس كعوان

جامعة سطيف 2

مقدمة:

لا يزال البحث في تاريخ الجزائر المعاصر في جوانبه الاجتماعية والاقتصادية في بداياته وتعرضه عدد من الصعوبات، منها قلة الإشارات الخبرية وتبعثرها في المصادر التاريخية، مما يجعل من مهمة اختراق هذا المجال البحثي بمثابة المغامرة، فكيف الحال إذا كنا نعالج منطقة صغيرة جغرافيا كم منطقة تيبازة التي لم تكن خلال الفترة الاستعمارية سوى منطقة تجارب استيطانية أوروبية كتب للكثير منها النجاح على حساب إبعاد أصحاب الأرض من الأهالي الذين وجدوا أنفسهم غرباء في وطنهم بعد أن فرضت عليهم الإدارة الاستعمارية قوانينا قاسية، دفعت بهم إلى حالة من البؤس والفاقة، وتراجع تعدادهم في مقابل تزايد الهجرات الأوروبية للمنطقة.

وسنحاول في هذه الورقة البحثية معالجة التطور الاجتماعي والاقتصادي في منطقة تيبازة أواخر القرن 19م اعتمادا على عدد من المصادر الفرنسية التي ركزت كل واحدة منها على منطقة من مناطق تيبازة، وخصتها بدراسة مونوغرافية.

1 - التوسع الفرنسي بمنطقة تيبازة وموقف الأهالي منه:

كانت منطقة تيبازة من بين أولى المناطق التي خضعت للاحتلال الفرنسي نظرا لقربها من العاصمة وسهولة تضاريسها، وقد قامت السلطات الفرنسية بتعيين قائد من الأهالي لحكم المنطقة، وتم تشكيل فرقة من الصبايحية لحفظ الأمن⁽¹⁾.

وكان قاضي شرشال قد أعلن استسلامه للفرنسيين منذ سنة 1830م⁽²⁾، وفي مارس 1831م وصلت القوات الفرنسية إلى أسوار القليعة، ولقيت مقاومة كبيرة من الأهالي منذ سبتمبر 1832م، واتهم الآغا سيد محمد بن مبارك بتحريض الناس على الجهاد، وكلف الجنرال بروسار باعتقاله لكنه لما لم يجده داخل المدينة اعتقل اثنين من أعيان أسرته، وفرض على المدينة غرامة مليون ومائة ألف فرنك لم يستطع السكان دفع سوى 10000 فرنك.

وقد قام الجنرالان دامريمون وفالي بإرسال قواتهما لشرشال لطرد أهالي حجوط الذين قاوموا ببسالة المستعمر الفرنسي⁽³⁾.

وفي سنة 1833م تم تنصيب الشرطة المدنية في المنطقة، وذلك لمراقبة تحركات الأهالي، خصوصا أهالي حجوط الذين استمروا في مقاومة الاحتلال، وأدعت المصادر الفرنسية أن هؤلاء المحاربين وعددهم 500 محارب كانوا يقومون بسلب الأهالي الذين يترددون على سوق الجزائر، وإن «لهم طابع طائش، بسبب بعدهم عن السهول، واقتربهم من القبائل الجبلية التي تدعمهم ويلجئون إليها عندما تهاجمهم القوات الفرنسية، وأيضا صعوبة الأراضي لكثرة المستنقعات.»

وقد نجحت القوات الفرنسية في القضاء على مقاومة أهالي حجوط، وعيّنت عليهم قائدا ليحكمهم⁽⁴⁾.

وفي سنة 1835م فكر الماريشال كلوزيل في تنصيب باي ليحكم المنطقة باسم الفرنسيين، وفي 09 سبتمبر 1835 تم تعيين الحاج عمر باي التيطري السابق في هذا المنصب، لكنه لم يحتفظ به طويلا، إذ أن البركاني خليفة الأمير عبد القادر قد سيطر على المنطقة.

وعند تجدد الحرب بين الفرنسيين وقوات الأمير عبد القادر في سنة 1839 سيطرت القوات الفرنسية على القليعة، ووجدتها شبه خالية من السكان⁽⁵⁾.

واستمرت المقاومة في المنطقة، ويمكن أن نشير في هذا الصدد إلى حادثة هامة وفريدة، هي قيام أهالي شرشال بالاستيلاء على سفينة تجارية فرنسية في 26 ديسمبر 1839، وكان من نتائج هذه الحادثة أن قرّرت السلطات الفرنسية التدخل بقوة، واستولى الماريشال فالي على المدينة في 13 مارس 1840، ولكنه وجدها خالية من السكان، فقرر ترك حامية بها، ولكن الأهالي عادوا وهاجموا تلك الحامية في الفترة ما بين 27 افريل و 06 ماي 1840م.

وفي 15 - 16 اوت من نفس السنة حاول البركاني القيام بهجوم كان الأخير من نوعه، واستطاعت السلطات الفرنسية استمالة بعض القبائل بعد أن سمحت لها بممارسة نشاط تجاري وارتياح الأسواق المجاورة، وفي 20 سبتمبر 1840 أنشئ أول مركز سكاني لمائة عائلة أوروبية بشرشال.

وفي سنة 1842 قرر الماريشال بيجو مهاجمة إحدى زوايا المنطقة وتدميرها بعد أن وجهت لها تهمة التحريض على حرب الفرنسيين⁽⁶⁾.

واستمر الأهالي في المقاومة رغم ادعاء الكتاب الفرنسيين بإنهاء هذه المقاومة واستقرار الأوضاع، وخلال ثورة 1871 لعبت منطقة تيبازة دورا بارزا، فأهالي القورين وسيدي سميان شاركوا بقوة في ثورة المقراني، وهاجموا مراكز الاستيطان الفرنسي في زوربخ، وفي 04 جوان 1872 ونتيجة ذلك صدر قرار من الحاكم العام بحجز أراضي أهالي القورين، وفي 14 أوت 1872 تم حجز أراضي أهالي سيدي سميان⁽⁷⁾.

وفي أواخر القرن 19م وبعد انتهاء أعمال المقاومة، كانت بمنطقة تيبازة التقسيمات الادارية التالية :

- بلدية شرشال: هي مقاطعة من الدائرة القضائية للبلدية، تحت إدارة مفوض مدني يشغل مهام قاضي الصلح، ويتبع القسم القضائي للبلدية بموجب قرار 07 مارس 1855، وهي أيضا مقر إقامة القائد الأعلى للحماية الفرنسية بالمنطقة، والمقدر عدد أفرادها بـ 487 رجل.

وتضم بلدية شرشال ملحقتين هما: novi وهي مستوطنة فلاحية تأسست سنة 1848 في المكان المسمى سيدي غيلاس، وهي تبعد بـ 06 كم غرب شرشال في سهل خصب، وألحقت بشرشال بموجب قرار 09 جويلية 1852، وبها 295 نسمة بينهم 44 عربي، وزوربخ-zu rich وهي مستوطنة فلاحية أخرى تأسست سنة 1848، تقع على بعد 13 كم جنوب شرق شرشال على ضفاف واد الحشم، عدد سكانها 247، من بينهم 30 من الأهالي⁽⁸⁾.

- بلدية قوراية كاملة الصلاحيات: انشئت بموجب قرار من الحكومة العامة بتاريخ 27 افريل 1876، وضمت إليها بعض الأراضي من بلدية شرشال المختلطة، وفي 31 جانفي 1878 ضمت اليها دواوير القورين وسيدي سميان التي كانت تتبع لقبيلة بني مناصر، وفي 10 فيفيري 1879 اقتطعت مساحات من اراضي قبائل بني مالك وبني فراح لتضم للادارة المدنية بقوراية. ومنذ إنشائها كبلدية كاملة الصلاحيات، فإن بلدية قوراية ضمت أحد عشر فرعا بلديا، ثمانية منها اهلية، وثلاثة اوروبية، وكان لكل فرع ممثله في المجلس البلدي، لكن التمثيل الاوروبي كان اكبر.

كان مقر بلدية قوراية منذ تأسيسها في 27 افريل 1876 بمدينة شرشال، وكان اول رئيس لها هو السيد باستار، ثم غير المقر بعد بضعة اشهر الى المقر السابق للمكتب العربي خارج المدينة في مخرج باب الجزائر.

وفي جوان 1877 صار المقر في قوراية نفسها، ثم عاد المقر إلى شرشال في جانفي 1880.

- بلدية القليعة: أنشئت بموجب قرار رئاسي صادر في 26 فيفري 1852، ألحقت بالدائرة الإدارية البلدية.

وتضم بلدية القليعة خمس ملحقات هي: الدواودة - فوكة - المزارع السوسرية - زرالدة - Castiglione .

- بلدية مارنغو: تأسست بقرار 17 سبتمبر 1848 لاستقبال 170 عائلة من قدماء عمال باريس، والقرار الملكي في 13 جانفي 1855 جعل منها مفوضية مدنية، وبقرار 31 ديسمبر 1856 تحولت إلى بلدية، وتضم بلدية مارنغو ثلاث ملحقات إدارية هي: بوركيكة و تيبازة و حمر العين.

وقد أوردنا التفاصيل السابقة لأنه كانت لها تداعيات كبيرة على الجانب الاجتماعي، إذ أن احتكار المستوطنين للسلطة، وإبعاد الأهالي منها، زاد من حالة اليأس لدى هؤلاء الأهالي.

2 - الوضع الاجتماعي والثقافي بالمنطقة:

تغيرت التركيبة السكانية بالمنطقة منذ السنوات الأولى للاحتلال، حيث بدأت الإدارة الاستعمارية تشجّع الأوروبيين من مختلف الجنسيات على الهجرة، وذلك بمنحهم أراضي زراعية جيدة لتسهيل الاستيطان، ففي دوار قوراية مثلا كان عدد السكان يقدر بـ 3207 نسمة من بينهم 142 إسباني و 28 ألماني و 1812 من الأهالي والبقية من مختلف الجنسيات، وبلغ إجمالي سكان بلدية قوراية المختلطة: 25486 نسمة، وهي تضم 8 دواوير تتمثل في: سيدي سميان، القورين، الاربعاء، زتيمة، بني مالك، لارهاط، آغبال، الداموس. وبمنطقة مارنغو Marengo كان هناك 656 نسمة من بينهم 15 ألماني، وبالقليعة كان هناك 1262 نسمة من الأوروبيين، بينهم 195 إسباني، و هناك 1435 من الأهالي.

ونلاحظ أن الإدارة الفرنسية سهلت عمليات استيطان الأوروبيين بالمنطقة، وكان الهدف جعلهم أغلبية لتتمكن من إنشاء بلديات كاملة الصلاحيات، وإبعاد الأهالي عن المنطقة.

وفي الجانب الصحي أشارت التقارير الفرنسية إلى تدهور الوضع الصحي للأهالي ولجوئهم لوسائل علاج تقليدية، والاعتقاد في قدرة بعض المرباطين على الشفاء، وانتشار عدوى الأمراض بسرعة.

ويضاف إلى ذلك نقص التغذية بفعل قلة المردود الزراعي، والآفات الطبيعية التي كانت تفتك بالمحاصيل، ففي سنة 1893 مثلاً اكتسحت أفواج الجراد المنطقة، وفي 25 أبريل 1893 هجمت هذه الأفواج على دوار سيدي سميان، ووصلت إلى حواف واد هاورارت في الواحدة بعد منتصف النهار في فرقة مازر، واكتسح الفوج الثاني من الجراد دوار الداموس⁽⁹⁾.

وفي 09 ماي 1893 عم الجراد كامل منطقة قوراية، ولم يتوقف زحف أفواج الجراد سوى في 18-19 ماي مخلفاً أضراراً بالغة على المحاصيل الزراعية، وكان المتضرر الأكبر بطبيعة الحال هم الأهالي.

ونتيجة لفقدان موارد رزقهم كان أهالي المنطقة يلجئون في كثير من الأحيان إلى المناطق المجاورة للبحث عن موارد الرزق، فقد سجلت التقارير الفرنسية ذهاب الكثير من أهالي المنطقة إلى الشلف بحثاً عن العمل سنة 1893 بعد زحف الجراد على المنطقة.

وفي مجال التعليم اهتمت السلطات الفرنسية بتعليم أبناء المستوطنين، وأنشأت لهذا الغرض عدداً من المدارس، ففي شرشال مثلاً كان هناك مدرسة للبنين ومدرستين للبنات.

وفي مدرسة البنين كان هناك 4 معلمين و169 تلميذ من بينهم 20 من الأهالي، وبمدرسة البنات معلمين اثنين و90 تلميذة لا توجد واحدة من بينهم من الأهالي.

وكانت هناك حضانة بها معلمين اثنين و100 تلميذ، ولا يوجد تلميذ واحد من بينهم من الأهالي.

وهناك مدرسة حرة تديرها الراهبات بها 50 تلميذ، ومدرستين عربيتين حرتين بهما 120 تلميذ.

وفي نوي⁽¹⁰⁾ ثلاث مدارس: واحدة للأولاد بها معلم واحد و40 تلميذاً، وواحدة للبنات بها معلم واحد و30 تلميذة، وحضانة بمعلمة واحدة و60 تلميذاً، ولا تملك زوريخ إلا مدرسة واحدة مختلطة بمعلمة و50 تلميذاً⁽¹⁰⁾.

وفي سنة 1885 تم إنشاء دروس مسائية لتعليم الأهالي البالغين في مدارس مونسو وفيلبورغ، لأن تعليمهم بالنهار يتعارض مع القوانين الفرنسية، لكن حتى هذه المحاولة فشلت بتحريض من المستوطنين، ولم تقم أي مدرسة أهلية منذ ذلك التاريخ، وفي بعض الدواوير يتشارك الأهالي لدفع راتب لإمام لتدريس أبنائهم القرآن ومبادئ اللغة العربية.

وفي الجانب الديني كان المذهب السائد في المنطقة هو المذهب المالكي، مع تسجيل وجود عدد ضئيل من الأحناف، ففي قوراية مثلاً لم يتعد عدد الأحناف أربعة أشخاص.

وكان المرابطون منتشرون بكثرة، ففي قوراية هناك المرابط سيدي الشيخ بدوار الداموس، وهو من ذرية سيدي الشيخ بالبيض، والمرابط سيدي محمد أبركان بدوار القورين، وهو من ذرية سيدي محمد أبركان من المدية، والمرابط سيدي محمد سميان بدوار سميان، وهو الذي منح اسمه للدوار الذي هو قسم من قبيلة بني مناصر، والمرابط سيدي محمد أو مزوقة بدوار الأربعاء، وهو من ذرية سيدي احمد بن يوسف الملياني، والمرابط سيدي محمد آقروور بدوار أغبال.

وانتشرت الخرافات والبدع بسبب انتشار الجهل، فظهرت ظواهر غريبة، كزيارة الأضرحة، والتماس البركة من الأولياء، ففي شهري ماي وجوان من كل سنة يأتي أهالي مليانة لزيارة ضريح المرابط الشهير سيدي ابراهيم الغبريني بشرشال، ويقوم أهالي دوار الأربعاء بدورهم وفي مواعيد غير محددة بزيارة ضريح سيدي احمد بن يوسف بمليانة. وتقام احتفالية كبرى كل سنة بعد موسم الحصاد للمرابط سيدي محمد آكلوش في دوار قوراية، وخلال السنة يأتي لزيارة ضريح هذا المرابط عدد من الأهالي، وفي كل دوار هناك مرابط يقوم الأهالي كل خميس وجمعة بزيارة ضريحه⁽¹¹⁾.

3 - الوضع الاقتصادي بالمنطقة:

منذ سنة 1859 سجلت الإدارة عددا من النقاط كمراكز استيطان بالمنطقة، ومن بين هذه المراكز: واد الرحا وهو قوراية اليوم، وواد الملاح الذي أطلق عليه اسم فيلبورغ، وأخيرا واد الداموس.

ومنذ سنة 1865 بدأ السعي لإنشاء هذه المراكز، واستغلت السلطات اندلاع ثورة المقراني، وما نتج عنها فيما بعد من اعمال مصادرة وحجز للأراضي، لتوزع أراضي الثوار على الأوروبيين وتتوسع بذلك المراكز الاستيطانية بالمنطقة.

وفقدت قبيلة بني مناصر مساحة تقدر بـ 1700 هكتار في منطقة القورين، وانتزع من أهالي قوراية وأغبال مساحة تقدر بـ 2000 هكتار، وانتزع من لارهاط 600 هكتار بواد الملاح. والزراعة مزدهرة في كامل الأراضي نظرا لخصوبة التربة، وتوجد 70 هكتارا من المراعي الطبيعية في المراكز الاستيطانية الثلاث ببلدية قوراية المختلطة.

ولا تشكّل زراعة القمح أولوية في المنطقة، مثلها مثل زراعة الشعير والفل والذرة والعدس، وهناك 15 هكتارا غرست فيها أشجار الزيتون، يباع إنتاجها للأهالي في قوراية.

وحاول بعض المستوطنين زراعة البرتقال والليمون لكن الإنتاج كان ضئيلاً ، وتم التركيز على زراعة الخضروات لتغطية الطلب المحلي للكولون.

ولعل الزراعة الأكثر أهمية هي زراعة الكروم ، وفي منطقة قوراية خصصت لها مساحة تقدر بـ: 140 هكتار.

وكانت التجارة الرئيسية في بلدية شرشال هي الخمر ، وفي سنة 1894 أحصت الشركة الفلاحية ما مجموعه 834 هكتاراً مزروعة عنباً أنتجت 50 ألف هكتو لتر موزعة على المناطق التالية:

الانتاج بالألف هكتولتر	المساحة المزروعة	المنطقة
22	397 هكتار	شرشال
20	305 هكتار	نوفي
08	132 هكتار	زوريخ

وكانت تجارة الحيوانات الداجنة والحبوب تكاد تكون منعقدة. و كان هناك مصنعان لتعليب السمك بشرشال، يعطيان مردوداً سنوياً يقدر بـ 1000 قنطار، وهناك عشرات المصانع لإنتاج الزبيب الغذائي تعمل بالبخار تموضعت في مختلف مناطق شرشال، وتملك شرشال مذبجاً عمومياً مداخله السنوية 15000 فرنك.

وهناك 3 أسواق رئيسية: الأول بشرشال، وهو يومي، ويقدم مداخل سنوية تقدر بـ 10 آلاف فرنك، والثاني بزوريخ، وهو أسبوعي، ويقدم 1500 فرنك، والثالث وهو أسبوعي أيضاً بنوفي «novi»، ويقدم مداخل ضئيلة⁽¹²⁾.

وهناك سوق بمدينة القليعة بشارع السوق أمام المسجد الحنفي، ولا شيء لافت للانتباه في هذا السوق، والأسعار ليست مرتفعة، خصوصاً المواد الأساسية، وبمارنغو سوق الأربعاء الذي يتردد عليه الأهالي الذين يجلبون إليه التين والزبيب والعسل والشمع والمواشي والأصواف، وهناك أسر أوروبية من مدينة الجزائر تتاجر بالقمح، وأقامت لها بمارنغو فروعاً تجارية لتوسطها بين الشلف وتيبازة.

ومن بين الصناعات الأوروبية التي كانت موجودة بقرية حجرة النص التي سميت Fon- taine- du genie كانت صناعة تشكيل حجر تبليط الشوارع.

وقبل سنة 1891 كان يوجد في ضواحي مركز فيليبورغ مصانع الجبس، وورشات الزيت، لكن منذ زلزال 15 جانفي 1891 لم تعد هذه المصانع والورشات تعمل.

ونشير إلى وجود مصنعين للزيت، واحد في دوار آغبال، والآخر في دوار بني ميلاك، ويشكل هذا النشاط مورد رزق الأهالي الرئيسي بهاتين المنطقتين، ويتراوح الإنتاج بين 50-60 ألف لتر سنويا في المتوسط.

وكانت هناك صناعة الزجاج التي أدخلها المهندس الفرنسي آميدي ماصلان في Marceau، وتملك الشركة 14 هكتار، وتضم هذه المساحة محاجر رملية لرمال الصوان الأبيض والأصفر والأحمر والبنفسجي وهي تعطي نوعية جيدة.

وبمارنغو سد، هو أول سد يقام في مقاطعة الجزائر سنة 1857، وارتفاعه 17م، وطاقته استيعابه 2 مليون م³، بمعدل 200 لتر في الثانية، وهناك 1500 هكتار مستغلة في الزراعة بمارينغو.

وفي الشعبية بالقليلة تم إنشاء مركز استيطاني للسويسريين، ونشأت صناعة محلية يمارسها أهالي الشعبية وفرغان، هي صيد العلقات Sangsues، وتمارس أعمال الصيد في مساحة تتراوح بين 25-20 هكتار في المستنقعات التي تتبع واد العلايق.

ويقوم الأهالي بصيد 10000 علقة سنويا يبيعونها بالقليلة وبوفاريك، لكن هذه الصناعة اختفت أواخر القرن 19 بسبب أعمال الاستيطان وجفاف المستنقعات⁽¹³⁾.

خاتمة :

في ختام هذه المداخلة نخلص إلى أن منطقة تيبازة قد عرفت جملة من التحولات الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن السياسة الفرنسية التي ركزت على تنمية أعمال الاستيطان الأوروبي، واستغلال كامل ثروات الأهالي، دون النظر للوضع البائس الذي كان يعيشه الأهالي، وكانت تعتمد كل مرة إلى تفكير هؤلاء الأهالي، بانتزاع أراضيهم، وحرمانهم من ممارسة أي نشاط اقتصادي، مع التزامهم بإثراء الخزينة العمومية عبر دفع الضرائب دون تقديم أي خدمات مقابل تلك الأعباء.

الهوامش :

- 1- M.Gaillard : Sur Alger. imprimerie de Bonier-Lambert 1837. p 07.
- 2- Victor Bérard : Indicateur générale de l'Algérie. Bastide libraire-éditeur. Alger :1858. p 258.
- 3- Ibid. p 262.
- 4- M.Gaillard : Opcit. p 25-26.
- 5- Victor Bérard :Opcit. p 262.
- 6- Ibid. p 258.
- 7- Fernand Dor : Cherchel et la commune mixte de Gouraya imprimerie administrative A.Mauguin. Blida 1895 . p 133
- 8- Fernand Dor : Opcit. p 50-53.
- 9- Ibid. p 103-104.
- 10- Ibid. p103.
- 11- Ibid. p119.
- 12- Ibid. p 262.
- 13- Louis Piesse : Alger et ses environs. librairie Hachette. Paris.1897. p 51.